

اجتهادات أوبئة وإمبراطوريات

مُبْهَج خبر الإعداد لترميم مدرج الكولوسيوم المشهور الذى يعرفه محبو روما القديمة الجميلة. بُنى هذا المدرج، وغيره كثير، فى عصر الإمبراطورية الرومانية القديمة، فى صورة مسارح شبه دائرية استُخدمت لأغراض مختلفة. ولكن لمدرج الكولوسيوم سحرًا خاصًا. يشعر الواقف أمامه بأنه يستنشق عبق التاريخ، وأنه عاد نحو عشرين قرنًا إلى الوراء.

توجد بضعة مدرجات رومانية قديمة فى عَمَّان وجرش فى الأردن، وفى قرطاج بتونس، إلى جانب عشرات البلدان التى كانت ذات يوم جزءًا من إمبراطورية مهولة حكمت أكثر من ربع سكان العالم من شمال أوروبا إلى غرب آسيا شرقًا، وإلى أطراف الصحراء الأفريقية جنوبًا، وكانت إحدى أكبر الإمبراطوريات القديمة. ولهذا أثار سقوطها، وانفراط عقدها، جدلاً لم ينته حتى اليوم. مازال المعنيون بالموضوع مختلفين بشأن العامل الأكثر تأثيرًا فى سقوطها من بين عوامل عدة يُتفق بدرجة أو بأخرى على أنها ساهمت فى هذا السقوط.

وهى فى مجملها عوامل مشتركة فى سقوط الإمبراطوريات، مثل الاستنزاف العسكرى الذى تتعرض له بمقدار توسعها، ومن ثم اضطرارها إلى حشد قوات فى جبهات كثيرة وعلى خطوط طويلة ومتباعدة، والتدهور الاقتصادى الذى يرى بعض الدارسين أنه يعود بالأساس إلى الإفراط فى الاعتماد على عمل العبيد، والإنفاق بلا حساب على مناسبات مُبهجة فى عهد بعض الأباطرة الذين أرادوا الحصول على أكبر تأييد شعبى بدون

حساب تداعيات سلوكهم، وازدياد قوة الخصوم خاصة بعد انتشار المسيحية برغم معاناة من آمنوا بها لكثير من أشكال الاضطهاد.

ولكن بعض العلماء الذين درسوا تاريخ هذه الإمبراطورية يُعيدون سقوطها إلى انتشار أوبئة خطيرة نتيجة إنجاز مشاريع ضخمة لإزالة غابات واستصلاح أراضٍ، مما أدى إلى وجود مناطق طبيعية واسعة صارت مرتعًا لحشرات وقوارض ناقلة للأمراض. وتوسع نطاق العدوى بهذه الأمراض ومن بينها الطاعون. وإذا صح أن الأوبئة ساهمت بدور معتبر في سقوط الإمبراطورية الرومانية، فهذا يعنى أن الوجه الآخر السلبي للتقدم بدأ في الظهور في وقت مبكر من تاريخ البشر، إذا صح أن تقدم الهندسة الرومانية هو الذى خلق ظروفًا ملائمة لانتشار أمراض وتحويلها إلى أوبئة فتاكة.